الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي

(العصر الأيوبي)

إعداد

د.ناهدة الكسواني *

د. نجـية الحمـود **

* مشرفة أكاديمية متفرغة، منطقة القدس التعليمية، جامعة القدس المفتوحة.

** مشرفة أكاديمية متفرغة، منطقة جنين التعليمية، جامعة القدس المفتوحة.

ملخّص:

موضوع هذا البحث هو (الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي عام ٥٨٣هـ، (العصر الأيوبي). تحدثنا فيه عن ازدهار الحركة العلمية في بيت المقدس في العصر الأيوبي بشكل عام وفي ظل دولة صلاح الدين الأيوبي بشكل خاص . وبيَّنا جهود الأيوبيين وجهود صلاح الدين ،ودورهم في الحركة الفكرية من تشجيعهم للعلم والعلماء، وتقريبهم إليهم، وبناء المدارس والزوايا والخوانق والبيمارستانات، لتكون ملتقى للعلم والعلماء، ثم تحدثنا عن دُورِ الكتب ودورها في الحركة الفكرية في بيت المقدس . وخصصنا الحديث بعد ذلك عن دار كتب المسجد الأقصى وما تعرضت له هذه الكتب من ضياع وسرقة، لكثير من المؤلفات والمخطوطات النفيسة التي خلّفها لنا السلف.

Abstract:

The subject of this research is the intellectual movement in Jerusalem after the demise of the Crusader occupation of 583 (Ayyubid). The during discussed the prosperity of the scientific movement in Jerusalem study the state of saladin, and explained his efforts and their role in the intellectual movement. These efforts included encouraging science, and scientists, building schools, corners, and Alpemmarstanat (hospitals), to be a forum for science and scientists.

It also discussed the role of books in the intellectual movement in Jerusalem. It talked about books in Dar Al-Aqsa mosque, and subjected to these books from corruption , loss and theft, for a lot of books and manuscripts Precious behind us advances.

مقدمـــة:

إن للقدس تاريخاً وتراثاً عريقين، ولها في نفوس أصحاب الديانات الثلاثة مكانة عظيمة مقدسة، وقد بارك الله سبحانه وتعالى هذه البقعة المقدسة من الأرض ، وجعلها مهد الديانات السماوية، لتظل حاضرة في قلوب البشر جميعاً، وقد عدها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من مدائن الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أربع من مدائن الجنة مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس" [١]، ومن أقام فيها فقد اعتبره الرسول(ص) مرابطاً إلى يوم القيامة، فعن معاذ قال: قال رسول الله (ص) " يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو في جهاد إلى يوم القيامة."[٢]

وموضوع هذه الدراسة هو: (الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي عام ٥٨٣ هـ ، العصر الأيوبي).

فقد كان العصر الأيوبي عصر ازدهار علمي وحضاري وثقافي. وقد تحدثنا في هذا البحث عن دور صلاح الدين ، ومن جاء بعده من الأيوبيين في الحركة الفكرية في بيت المقدس، حيث عرف عنه أنه من بناة النهضة التعليمية، وله دور يذكر في رعاية المشاريع الإنشائية والتعليمية، فقد قام ببناء كثير من المدارس، والزوايا والخوانق، والبيمارستانات، وقرَّب إليه الأدباء والعلماء، وأعلى من شأنهم ومكانتهم في حكمه. ثم تحدثنا عن دور المدارس في الحركة الفكرية في بيت المقدس ، فقد تعددت مجالات التدريس في هذه المدارس ، وفي المسجد الأقصى ، فكان يدرس فيها العلوم الشرعية ، والعلوم الطبية ، وعلوم اللغة العربية....وغيرها، وذكرنا في هذا البحث دور الزوايا والخوانق في الحركة الفكرية في بيت المقدس.

وتحدثنا بعد ذلك عن دور الكتب في بيت المقدس ودورها في الحركة الفكرية، فالعرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع أحد أن يقرأه على حد تعبير مجير الدين الحنبلي، وما هو موجود منه الآن في دار كتب المسجد الأقصى أقل بكثير مما يجب أن يكون عليه.

فتراث القدس يجب أن يبقى حاضراً في أذهاننا، وأن يكون له النصيب الأكبر من مجالات اهتمامنا وأبحاثنا ودراساتنا.

صلاح الدين الأيوبي ودوره في الحركة الفكرية:

نشطت الحياة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي، وتعددت روافدها التي تمثلت في إنشاء كثير من المراكز العلمية من مدارس، ومساجد ومكتبات، وبيمارستانات وزوايا، وخوانق ورباطات وغيرها، ودُرست العلوم المختلفة في هذه المراكز من علوم شرعية، وعلوم اللغة العربية، وعلم التاريخ، والعلوم العقلية والعلمية، وظهر العديد من المفكرين والعلماء، ووضعت مصنفات كثيرة في مجالات عدة، فضلا عن الفنون الأدبية المختلفة من شعر و نثر وغيرها.(٣)

فبعد تثبيت صلاح الدين لدعائم حكمة في بيت المقدس، أخذ ببناء المدارس والخوانق والبيمارستانات لمعالجة المرضى وتعليم الطب.(٤) وشرع بإعادة الطابع العلمي والديني والثقافي للمدينة، فأمر بوضع المصاحف في المسجد الأقصى، وأمر بإعادة الحياة الفكرية للمسجد الأقصى. وقام بتأسيس المؤسسات التعليمية لتدعيم المذاهب السنية ونشر العلم وتشجيع العلماء ، فأنشأ المدارس والزوايا والخوانق ، لخدمة العلم والعلماء ، فقد كان يهتم بمجالسة العلماء ومشاركتهم في حلقات النقاش العلمية (٥)

وجرى خلفاء صلاح الدين على سنته من حيث الاهتمام بالحركة الثقافية والعلمية ، فأقاموا المدارس والزوايا والخوانق.(٦) فقد تحولت مدينة القدس بعد فتح صلاح الدين الأيوبي لها عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م إلى جامعة مفتوحة زادت مناراتها التعليمية عن المائة مدرسة وزاوية وكتاب مشهور فضلاً عن أكثر من خمسة وثلاثين مسجداً. (٧)

فقد وصل عدد المدارس وبيوت الصوفية في مختلف أنحاء فلسطين مئات عدة ، وكان منها في القدس وحدها أكثر من سبعين مدرسة، بالإضافة إلى عشرات الزوايا والرباطات والخوانق، وكان في هذه المدارس والزوايا مكتبات. (٨)

فالمتأمل لتاريخ القدس منذ تحريرها على يد صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، حتى سقوطها بيد الصهاينة عام ١٩٦٧م، يلاحظ أن هذه المدينة على صغر مساحتها ، وقلة عدد سكانها، مقارنة بالحواضر الإسلامية الكبرى قدمت لنا أكثر من خمس وعشرين ومائة خزانة كتب ملحقة بسبعين مدرسة وخمس وخمسين زاوية ورباط، فضلاً عن عشرات المكتبات الخاصة (٩)

لقد كان صلاح الدين الأيوبي من بناة النهضة التعليمية، وكان له دور يذكر "في رعاية المشاريع الإنشائية والتعليمية، فقد رعى في دمشق عشرين مدرسة ومائة حمام عمومي، وأربعين داراً للوضوء، وعدداً كبيراً من تكايا الدراويش، جلهّا مجهز بالماء الجاري. وصلاح الدين هو الذي أدخل تكية الدراويش ونظام المدرسة إلى مصر، وكان الغرض من إنشاء نظام المدرسة فيها محاربة التعليم الشيعي، ثم بنى في القدس مدينة ومستشفى ومدرسة وتكية تنسب كل منها إليه وعرف باسمه".(١٠)

وفي ذلك تأكيد على مدى اهتمام صلاح الدين بالفكر والأدب " وطبيعي أن ينعكس ذلك على الحركة الفكرية أينما يحلّ صلاح الدين في بيت المقدس أو في غيرها" (١١)

لقد ازدهرت الحركة العلمية في ظل صلاح الدين بعد تحريره لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ ، وأنشأ المراكز العلمية والطبية، وكثرت المجالس الأدبية والمحاورات الشعرية والنثرية في عهده ، وكان له دور يذكر في تشجيعه للعلم والعلماء.(١٢) فقد كان فتح بيت المقدس "فتحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والطرق، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسَّر الله له على يده من فتوح الساحل، وشاع قصده القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور"(١٣)

وقد قرَّب صلاح الدين الأدباء والعلماء إليه، وأعلى من شأنهم ومكانتهم في ظل حكمه، من أمثال القاضي الفاضل، والعماد الكاتب، وبهاء الدين بن شداد، فقد كان هؤلاء "دعامة الحكم في عهد صلاح الدين، وموضع ثقته البالغة"(١٤) فقد قرّب صلاح الدين العماد الكاتب، وحظي عنده بمنزلة مرموقة، حتى صار من خاصته، "يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم " (١٥)

وعيّن القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء في عهده وكان للكفاءة الإدارية التي امتاز بها، ولطول باع قلمه، ولإخلاصه في عمله وتديّنه الفضل الأكبر في أن يصبح المساعد الأيمن لصلاح الدين، يعتمد عليه في كل ما يتعلق بشؤون دولته، لذلك كانت له في قلب صلاح الدين المكانة الأولى التي لا تدانيها مكانة، وما أجمل قول صلاح الدين في تقدير منزلته: " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل "(١٦)

وأما ابن شداد معاصر صلاح الدين فقد توثقت صلة صلاح الدين به " بسبب إعجابه بعلمه وشخصيته، إذ رأى فيه من السمات والصفات والعلم ما يدعو إلى احترامه والركون إليه."(١٧)

ومما يبين ازدهار الحركة العلمية في ظل صلاح الدين الأيوبي بعد تحريره لبيت المقدس وصف موفق الدين البغدادي لمجالس العلم التي كانت تعقد في زمن صلاح الدين الأيوبي ،-وكان عالماً وملماً بعلوم كثيرة.(١٨)وزار القدس في عهد صلاح الدين الأيوبي، وأخذ معه ما أمكنه من كتب القدماء- يقول:" توجهت إلى القدس، فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريباً بعيداً سهلاً محبباً... وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار، وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك، ويأتي بكل معنى بديع...فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع، وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار"(١٩). ثم عاد بعدها إلى دمشق، ليعود إلى القدس ثانية بعد أن انتزع ملك أولاد الملك الناصر "وكان يتردد إلى الجامع الأقصى، ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم، وصنّف هنالك كتباً كثيرة"(٢٠)

وبعد أن أعاد السلطان قبة الصخرة على ما كانت عليه بعد الذي أحدثه فيها الصليبيون "رتّب لها إماماً من أحسن القرّاء تلاوة، وأزينهم طلاوة، وأنداهم صوتاً، وأسماهم في الديانة صيتاً، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر، وأطيبهم في العرف والنشر...وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات معظمات... ورتب لهذه القبّة خاصة، وللبيت المقدس عامة (خدمة) –أي قائمون بأمرها – لشمل مصالحها، فما ترتب إلا العارفون العاكفون، القائمون بالعبادة الواقفون"[٢١]

ولعل في قول العماد الأصفهاني معاصر صلاح الدين الأيوبي لخير دليل على عناية السلطان بالعلم والكتب،وكل ذلك كان عاملاً من عوامل ازدهار الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي. ويؤكد ذلك أيضا قول العماد الأصفهاني حين استقرّ الأمر للسلطان في بيت المقدس، وتم له استلام ما بقربها من حصون، أخذ بعد ذلك بتوزيع ما جمع على ذوي الاستحقاق، وكلّ في مصرفه، فكثر الشعر، والنثر وحاز كل فضيلة منه فضلا..."[٢٢] "فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح ، ومتكلماً في مسألة، ومتفحصاً عن مشكلة، ومورداً لحديث نبوي شريف، وذاكراً لحكم مذهبي، وسائلاً عن لفظ لغوي، ومعنى نحوي، أو مقرضاً بقريض، أو معرضاً بتصريح ، أو جالباً لمدحه، أو طالباً لمنحه، أو مستضعفاً بفاقة، أو ناشداً بنشيد، أو مسمعاً بتغريب وتغريد "[٢٣]

لقد عرف عن صلاح الدين حبه لمجالس العلم، وعنايته بالعلماء، وتقريبه إليهم – كما سبق –، وقد وصف العماد مجالس صلاح الدين بقوله: "كانت محاضره مصونة من الحظر...ومحافله آهلة بأهل الفضل...ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القضاة، في القضاء أعلم منهم في الأحكام الشرعية، والأسباب المرضية، والأدلة الشرعية" [٢٤]

ويؤكد ذلك قول مجير الدين الحنبلي في حديثة عن ذكر أول خطبة بعد الفتح:"ولما فتح السلطان القدس تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا في خدمته حاضرين، وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة، طمعاً في أن يكون هو الذي يعيّن ذلك"[٢٥]

وكان قد أشار السلطان للقاضي محيي الدين بن زكي علي القرشي أن يخطب في أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح.[٢٦] وبعد الانتهاء من الخطبة، عقد مجلسا للوعظ جلس عليه الشيخ زين الدين أبو الحسن الأنصاري الحنبلي المعروف بابن نجية، وكان واعظاً حسناً بليغاً. [٢٧]

وقد سار أبناء صلاح الدين على نهجه، فقد شجع ابنه الملك الأفضل، وابن أخيه الملك المعظم عيسى الحركة العلمية من بعده.[٢٨]

المدارس ودورها في الحركة الفكرية:

تمثلت أبرز التطورات في مجال التعليم في العصرين الأيوبي والمملوكي في إنشاء كثير من المدارس " وهي منشآت جديدة لم تكن معروفة في فلسطين باستثناء مدرستين صغيرتين أشبه بالزوايا ترجعان إلى أواسط القرن الخامس الهجري ، وهما المدرسة أو (الزاوية) النصرية، ومدرسة أبي عقبة في القدس، كما تمثلت في ازدياد كبير في عدد المساجد وبيوت الصوفية من خوانق وربط وزوايا، وفي عدد الكتاتيب، وتمثلت بالتالي في زيادة كبيرة في أعداد الطلبة والعلماء والمشتغلين بالعلم، وفي نشاط متزايد في الحركة العلمية. (٢٩)

ويعود الفضل لصلاح الدين الأيوبي "في إنشاء أول مدرسة حقيقية في القدس وهي المدرسة الصلاحية سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م " (٣٠).وسنتحدث عنها بعد قليل. وكانت المدارس في ذلك الوقت لا تقل عن المدارس الثانوية والجامعات في وقتنا الحاضر، وكانت أول ما تعنى بالأمور الدينية، وكان التدريس فيها في البداية دون أي شروط، خالياً من الشكليات، وأخذت بعد ذلك بالتنظيم في تلقي الدروس، من حيث تحديد عدد الطلبة، وتعيين المدرسين المختصين بكل مدرسة. " وكانت المدارس من حيث الأساس مدارس وقفية، تنشأ بمقتضى وقفيات، وكانت الوقفية بمثابة عقد تأسيس تُحدد فيها شروط العمل وتنظم شؤون المدرسة المختلفة بما فيها منهج التدريس وموضوعاته وكتبه، وشروط الموظفين والطلبة ومخصصاتهم وأعدادهم".(٣١)

وكان يختلف عدد الطلبة من مدرسة إلى أخرى ، ففي بعض المدارس يتراوح ما بين ٦٠–٧٠ طالباً والمتوسط لهم ٢٠ طالباً، كما تختلف مدة الدراسة أيضاً بين مدرسة وأخرى، وقد تصل إلى أربع سنوات كما في المدرسة التنكزية وربما كانت هذه هي مدة الدراسة العادية في المدارس.(٣٢)

وبعد أن يصبح الطالب مؤهلاً للتدريس في المراكز العلمية المختلفة، والقضاء وغير ذلك كان يمنح الإجازة ومعظم من منحوا إجازة في التعليم، حصلوا عليها من تلقي علومهم عن "أشهر العلماء في المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، والزاوية الختنية والمدرسة الصلاحية، والمدرسة المعظمية وغيرها من المراكز العلمية الأخرى في بيت المقدس".(٣٣)

وكانت المدارس مهيأة لإقامة الطلاب فيها، وتعليمهم مجاناً، فضلاً عن المخصصات الشهرية التي كانت تدفع لهم، لذا التحق بهذه المدرسة الفقراء والأغنياء، وأما الفتيات فلم يخصص لهن مكان بهذه المدارس، بل كان يتم تدريسهن في البيوت من آبائهن أو من الشيخات.

وللمدارس وظيفتان: وظيفة علمية (أكاديمية) يقوم بها شيخ المدرسة أو مدرسيها، يختار من كبار العلماء، وله نائب خاص يسمى نائب التدريس، يساعدهما معيد أو معيدان في فهم الدروس، وخازن الكتب.

وأما الوظيفة الإدارية فكانت تتولى مهمة الإشراف على الأمور الأخرى في المدرسة من حيث تأجيرها، وتجهيزها، ومصروفاتها وما إلى ذلك، وكانت الوقفيات تقوم بتحديد مؤهلات العاملين وواجباتهم وخاصة المدرسين.[٣٤]

وتتضح أهمية هذه المدارس ودورها في الحركة الفكرية، من علمائها ومشايخها، فقد ضمت كبار علماء العصر الأيوبي ، من أمثال: ابن شداد ،الذي استمر يؤدي دوره في المدرسة الصلاحية إلى ما بعد وفاة صلاح الدين. وفخر الدين ابن عساكر، الذي استمر في التدريس إلى أن تولى الملك المعظم عيسى الحكم بعد وفاة والده. وابن واصل الحموي، وأبي عمرو بن الصلاح، وعز الدين بن عبد السلام المقدسي، وكمال الدين بن أبي شريف.... وغيرهم، وقد كان لهؤلاء دور يذكر في التأليف، وفي ازدهار الحركة الأدبية.[٣٥]

وقد وفد إلى هذه المدارس عدد كبير من المدرسين من مختلف بلدان العالم الإسلامي"منهم طاهر بن جهبل الحلبي،- كان أول من ألقى درسا في الصخرة المشرفة بعد تحرير بيت المقدس - وكان إماما في الفرائض والحساب. وعثمان بن الصلاح الشهر زوري، وكان احد فضلاء عصره في التفسير والحديث، وشهاب الدين احمد بن الهائم المصري، وكان من كبار الرياضيين، وأحمد بن هلال المقدسي مؤلف كتاب (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) ، وكان من أعيان الفقهاء ". [٣٦]

وكانت هذه المدارس تشكل ملتقى للعلماء، ومكان اجتماعهم، ومقراً للرحالة للإقامة فيها، يشير إلى ذلك عبد الغني النابلسي أثناء حديثه عن رحلته، فيقول: "ثم جلسنا في اليوم السابع عشر من الرحلة السعيدة في مجلسنا بالمدرسة السلطانية الفريدة(وهو) يوم الأربعاء المبارك، وكان ذلك اليوم في كمال لطافته وانسجامه لا يشارك وأرسل (إلينا) في هذا اليوم مفخر العلماء والمدرسين وخلاصة أرباب الكمال في هذا الدين..." [٣٧] ثم يقول في نهاية حديثه عن هذا اليوم " ثم ذهبنا بعد صلاة العشاء الأخير إلى مكاننا بالمدرسة السلطانية الشهيرة"[٣٨]... ويضيف عبد الغني النابلسي قائلا " ثم خرجنا وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة السلطانية فحضر عندنا أعيان تلك البلدة، وأكابرها وعلماؤها وغالب أهلها، ففرحنا بلقائهم وابتهجنا برؤياهم، وكان ممن حضر عندنا بالمدرسة السلطانية شيخ الإسلام صاحب النسب الطاهر المتصل بسيد الأنام، العلامة عبد الرحيم أفندي المفتي بالقدس الشريف...الخ"[٣٩]

وقد قال الشيخ عبد الغني النابلسي في وصف المدرسة:-

وسلطانية في القدس كنا نتقابل فوقها (طورا طورا)

وتلك أجلّ مدرسة تسامت بأنواع المحاسن من ظهور

بها الحرم(المقدس) قد تجلى لساكنها بأنواع الحضور(٤٠)

وكان هؤلاء العلماء يتناولون في حلقاتهم العلمية أمهات المصادر والمراجع في مجالاتهم المختلفة، فعلى سبيل المثال كان يدرس في القراءات كتاب (التيسير في القراءات)، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ، وهو كتاب مشتمل على مذاهب القراء السبعة بالأمصار، وما انتشر من الروايات والطرق عند التالين، وصحّ وثبت لدى الأئمة المتقدمين، وقد شرح الكتاب شروحاً عديدة لأهميته في هذا المجال"(٤١). وقد كانوا في تدريسهم لهذه الكتب يقومون بشرحها وتوضيحها ليسهل على الدارس فهمها وحفظها " ومن ذلك منظومة الشاطبية، ومنظومة مجمع السرور، ومنظومة الكفاية"(٤٢).

وقد تعددت مجالات التدريس في هذه المدارس، وفي المسجد الأقصى، فكان يدرس فيها العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية، والقراءات، والحديث، والتفسير، والعلوم الطبية... وغير ذلك الكثير.(٤٣)

وقد أولى هؤلاء العلماء علوم اللغة العربية أهمية خاصة، بعد العلوم الدينية وذلك؛ لارتباطها معاً، ولأن علوم اللغة العربية بما فيها من نحو وصرف وشعر وعروض وبلاغة وغير ذلك ضرورية لفهم العلوم الدينية، وخاصة القرآن وتفسيره، وبيان إعجازه.(٤٤)

وقد تطورت العلوم الطبية في العصر الأيوبي في عهد صلاح الدين، فقد انشأ السلطان عندما فتح القدس (البيمارستان) حين " أمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب حمامه ماريستانا للمرضى، وزودها بالأدوية والعقاقير الغزيرة"(٤٥) وقد اشتهر هذا البيمارستان في عهد صلاح الدين من بعده، فكان يداوي الجرحى والمرضى ويوزع الأدوية والعقاقير على الناس دون مقابل، وقد عمل في هذا المستشفى أطباء مشهورون منهم رشيد الدين الصوري ، وكان وحيد زمانه في معرفة الأدوية ، والطبيب يعقوب بن صقلان النصراني المقدسي، الذي كان الطبيب الخاص للملك المعظم عيسى، "حتى قيل: إن الملك المعظم إذا احتاج إليه استدعاه في محفة تحمل بين الرجال"(٤٦)

هذا وفضلاً عن ذلك ، أخذ الحديث عن فضائل بيت المقدس اهتماماً كبيراً في مجالس العلم هذه. "وقد وضع علماء من بيت المقدس ومن خارجها سلسلة من الكتب التي سميت كتب الفضائل، وكانت تدرس في المسجد الأقصى وفي المدارس، ومن أشهر هذه الكتب (باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس) لبرهان الدين الفزاري ،و(مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) لأحمد بن محمد بن هلال المقدسي ،و(إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى) لشمس الدين محمد بن احمد المنهاجي السيوطي ". (٤٧)

وأما عن المدارس التي أنشئت في عهد صلاح الدين الأيوبي، فأهمها المدرسة الصلاحية قرب باب الأسباط، وهي كنيسة زمن الروم كانت تعرف بصندحنة... ويقال إن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، وتاريخ وقفها الثالث عشر من رجب سنة ٥٨٨ هـ"(٤٨). وقد صارت مدرسة أقامها صلاح الدين(٤٩) .وفيها يقول محمد كرد علي: إنه بعد أن استعاد صلاح الدين قبة الصخرة، ورتب أمورها– كما سبق– " فاوض السلطان جلساءه من العلماء الأبرار والأتقياء والأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء بالصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط... وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ما أولاه العارف."(٥٠)

ومن المدارس التي أنشئت في عهد صلاح الدين الأيوبي (المدرسة الحنثنية)" بجوار قبة المسجد الأقصى خلف المنبر، أوقفها الملك صلاح الدين تغمده الله برحمته على رجل من أهل الصلاح... وقد وليها جماعة من الأعيان"(٥١)، والمدرسة الميمونية، نسبة إلى الأمير ميمون بن عبد الله القصري ، خازن دار السلطان صلاح الدين. ابتدأت هذه المدرسة زاوية، ثم أصبحت مدرسة للشافعية. " ومن العلماء الذين تولوا فيها مهمة التدريس الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل المقدسي الشافعي، الذي عمل في التدريس في هذه المدرسة وفي غيرها من المدارس ، واستمر التدريس في هذه المدرسة حتى نهاية العصر المملوكي"(٥٢) " وتقع هذه المدرسة على بعد مائتي متر من باب الساهرة خارج السور."(٥٣) إلى غير ذلك من المدارس التي أنشئت في العصر الأيوبي، مثل المدرسة الأفضلية التي اختصت بالمذهب المالكي ، والمدرسة النحوية، والمدرسة المعظمية، والمدرسة البدرية ، والمدرسة المجدية ، والمدرسة الأوحدية ، وغيرها الكثير. ويضيق بنا المجال هنا للحديث عن هذه المدارس وقد فصل القول فيها مجير الدين الحنبلي وغيره.(٥٤) كما أنشئت المدرسة الحنفية على أبواب المسجد الأقصى في عهد الملك المعظم عيسى الذي تبع المذهب الحنفي مخالفا بذلك أهل بيته ورغب في نشر هذا المذهب بمدينة القدس ، وأقام قبة داخل حرم المسجد الأقصى ، اختصت بتدريس القراءات السبع ومدرسة لتعليم اللغة العربية وآدابها ، وتولى سلاطين بني أيوب مهمة الإنفاق على المدارس ورعايتها حيث أوقفوا عليها الكثير من الأوقاف ، وعينوا أمهر المدرسين وأفضلهم.(٥٥)

وقد ذكر محمد كرد علي: " أن أقدم المدارس التي وجدت في بيت المقدس كانت على زمن صلاح الدين الأيوبي بعد تحريره لبيت المقدس من أيدي الصليبيين، ثم توالى من بعد ذلك إنشاء المدارس من الأمراء والأغنياء وأهل الخير، حرصاً منهم على العلم" (٥٦)

وأشار ابن جبير إلى أهمية هذه المدارس والبيمارستانات حين قال:" إن هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام والمدارس كذلك، وإن الرباطات قصور

مزخرفة"(٥٧) وكانت هذه المدارس تنسب إلى منشئيها، وكانوا يعينون لها الأوقاف، لتسيير شؤونها، وتمثل الأوقاف دخلاً ثابتاً يساعد المدارس في تأدية رسالتها الفكرية، وترسيخ نظامها، وكانوا يعينون لها الشيوخ والمدرسين،ونظار الوقف وغيرهم"(٥٨)

لقد كانت هذه المدارس غاية ما وصل إليه العقل البشري ، والأعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة، وما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم والأدب.(٥٩).

وسجل السلف دوراً يذكر في إنشاء مراكز التعليم من مساجد ومدارس....وغيرها، ولو كتب البقاء لبعضها لأغنت القوم بعض الشيء بمعارفها ونشرت النور بينهم،(٦٠) لقد عملت هذه المدارس على تعليم الناس، وإخراجهم من الأمية، "وكان لمعظم المدارس والجوامع كتاتيب مرتبطة بها وخارجة عنها لتعليم الأطفال تؤهلهم لتلقي دروس المدارس والجوامع(٦١)

ويتبادر إلى ذهننا السؤال التالي: هل ما تزال هذه المدارس موجودة حتى وقتنا الحاضر ، ويدرّس فيه الطلبة ؟

إن معظم المدارس الأيوبية قد حولت إلى مساكن للعامة ، وبعضها يشغله بعض المؤسسات التابعة للأوقاف ،فالمدرسة الآمينية الواقعة بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية ،والتي أوقفها الصاحب أمين الدين عبدالله في سنة ثلاثين وسبعماية ، يقيم فيها بدون عقد إيجار الشيخ علي العباسي.

والمدرسة الدويدارية ،كانت تعرف بدار الصالحين ، هي الآن فيها مدرسة البكرية. والمدرسةالأوحدية ، بباب حطة ،التي أوقفها الملك الأوحد نجم الدين يوسف ابن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى ،فيها ساكنون من عدة عائلات منها الرجبي وغيرها.والمدرسة الصلاحية ، أهديت من قبل السلطان العثماني إلى الإمبراطور نابليون الثالث.وتضم اليوم مدرسة ومكتبة ومتحفاً وكنيسة.

أمّا البيمارستان الصلاحي فقد تعرض البناء لزلزال عام ١٤٥٨م، تهدمت على أثره أجزاء كثيرة من البيمارستان، وهو اليوم عبارة عن مكان لسوق محلي. (٦٢) وحولت المدرسة النحوية التي أنشأها الملك المعظم عيسى الأيوبي عام ٦٠٤هـ، وكرسها لتدريس العلوم العربية، فقد اتخذها المجلس الإسلامي الأعلى مؤخراً مقراً لمكتبته ثم اتخذت مقراً للمكتب المعماري الهندسي لإصلاح قبة الصخرة المشرفة، وهي الآن مكتب من مكاتب لجنة إعمار المسجد الأقصى.أمّا المدرسة البدرية والتي أسسها الملك المعظم عيسى عام ٦١٠هـ، بمساعي بدر الدين محمد بن أبي القاسم محمد الهكاري ، وهو من كبار المجاهدين في عصر الحروب الصليبية.فقد اندثرت ، ولم يبق منها إلا بعض البقايا التي دمجت مع الأبنية الحديثة ،وعلى مدخلها كتابة نسخية أيوبية.

الزوايا والخوانق ودورها في الحركة الفكرية:

لقد كثرت الزوايا والخوانق التي أنشئت في العصر الأيوبي وكان لها دور كبير في الحياة الفكرية، "وهي مؤسسات كان لها دور علمي واجتماعي وديني"[٦٣]

وأنشئت أيضاً الرباطات التي كانت تقوم بالدور نفسه الذي قامت به الزوايا والخوانق. فقد كانت الرباطات أماكن للعبادة والجهاد، ومركزاً للعلم والتعبد ، وقد اتخذت فيما بعد " أماكن للمطالعة من ناحية وللكتابة من ناحية أخرى، وهم يشتغلون فيها بالعلم ويؤلفون الكتب".[٦٤]

والزاوية هي ركن البناء ، والمقصود هنا مكان يقيم فيه شيخ ما ، وهي أشبه ما تكون مدرسة يرتادها طالبو العلم ، وكانت الزوايا تقوم بدور علمي ، وملتقى للوافدين ، يقيمون فيها الأذكار ويطعمون فيها الطعام ، " كما كانت تعقد فيها المجالس العلمية، وتتجلى أهمية الزوايا العلمية في أهميتها بالعلم من ناحية والتصوف سلوكاً وعلماً من ناحية أخرى"[٦٥]. وكانت تدرس فيها العلوم المختلفة ، مثل: القراءات والتفسير والأدب واللغة والمنطق ، " وهذا يعكس لنا الدور الفكري الذي كانت الزوايا تقوم به"[٦٦]. وكان يتولى أمر هذه الزوايا عدد من العلماء يعقدون بها المجالس العلمية وقد اشتغلوا بالتدريس في هذه الزوايا" فدرس بعضهم في الأقصى ودرس بعضهم الآخر في المدرسة الصلاحية، واشتغلوا بنسخ الكتب وغير ذلك"[٦٧]

وقد كثر عدد الزوايا والرباطات والخوانق بشكل ملحوظ في العصر الأيوبي ثم المملوكي " وكان في القدس ما يقارب المائة.... وكان في بعضها مكتبات، ومن ذلك الزاوية النصرية في القدس، وكان يفرض على المقيمين في الخوانق والرباطات واجبات تعليمية، وواجبات تعبدية محددة بموجب الوقفيات التي كان يتم إنشاؤها بمقتضاها.[٦٨]

وتجدر الإشارة إلى أن الزوايا كانت أكثر انتشاراً من الرباطات والخوانق لأنها اصغر منها، وغالباً ما كانت الزوايا " بيت رجل من الأتقياء يجمع حوله جماعة من التلاميذ... وكانت جميعها تؤدي مهمات تعليمية.[٦٩] فقد شاع التصوف في العصور الإسلامية على اختلافها، وتعلق بعض الناس بطرز من أهل العلم والدين، أخذوا طريق الزهد والتصوف. وأكثروا من بناء مؤسسات ودور للصوفية عرفت بأسماء متعددة من خانقاه، وزاوية، ورباط، وتكية، ومصطبة وغيرها، وقد اختلى الصوفيون في هذه المراكز للعبادة. ويبدو أن الخانقاه والزاوية والرباط كأماكن للصوفية تشابهت في معانيها ووظيفتها عدا الفروق البسيطة من ناحية التمويل وحرية الدروس، وغير ذلك .

وقد يتساءل بعضهم عن مفهوم الخانقاه ؟. الخانقاه ، بالقاف والكاف ، جمعها خوانق، لفظة فارسية تعني البيت [٧٠] وهي بناء ديني أقيم على نظام الصحن الذي يحيطه إيوان واحد أو أكثر فبعضها تضم باباً واحداً وبعضها أربعة ، وهي بلا مئذنة وبلا منبر وتضم

مسجداً لا تقام فيه صلاة الجمعة ، ويلحق أحياناً به ضريح أو مدرسة أو سبيل ، تُدرس في مدرسة الخانقاه العلوم الدينية على المذاهب الأربعة ، قامت الخانقاه أحياناً ، بدور أوسع من المدرسة في نشر الوعي الديني الموجه. (٧١)

ويعود تاريخ الخانقاه في مطلع القرن الثاني الهجري حسب بعض الروايات التي تقول إن أول خانقاه أقيمت بمدينة الرملة بفلسطين ، إلا أن هذه الرّواية لم تُؤكد ، وأغلب الظن أنها وجدت في القرن الخامس الهجري وكان أول من أسسها السلاجقة ونالت إهتماماً خاصاً في العهد الأيوبي واستمرت تُؤدي دورها في العهد المملوكي ،وما أن حل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حتى أفل نجمها وبدأت تتراجع.

كانت الخوانق تقوم بما تقوم به المدارس ومعاهد العلم الأخرى ، وقد اتخذ العلماء من الرباطات أماكن للمطالعة ، والكتابة ، وتصنيف الكتب ، وقد أنشئت منها مراكز كثيرة في بيت المقدس زمن الأيوبيين والمماليك، ومن أهم الخوانق التي أنشئت في العصر الأيوبي:

١ – الخانقاه الصلاحية:

من أهم الخوانق التي أنشأها صلاح الدين في القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، " وهي ملاصقة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، فقد نزل فيها عند فتح القدس واتخذها مسجداً ورباطاً للصالحين"(٧٢). وكان صلاح الدين قد أخذ جزءاً من منزل البطريرك الملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الشمالية وحوله إلى "جامع ورباط أوقفه خانقاه للصوفية" ثم تحولت إلى دار للمجاهدين وعليها منارة أنشئت زمن المماليك " أنشأها الشيخ برهان الدين بن غانم شيخ الخانقاه حوالي سنة ٨٢٠ هـ ١٤٧١ م"(٧٣) وقد وقفها صلاح الدين الأيوبي "في الخامس من شهر رمضان سنة ٥٨٥هـ "(٧٤) وقد كانت الخانقاه الصلاحية "أول خانقاه أنشئت في بيت المقدس بعد تحريره، وهي من أهم الخوانق التي ساهمت في ازدهار الحركة الفكرية في بيت المقدس وقد عمل فيها علماء مشهورون ، اشتغلوا في مجالات عدة ؛ بالعلم والخطابة ونظم الشعر ونسخ الكتب وغير ذلك ، ولأهمية هذه الخانقاه كان يحتفل بتعيين شيخها "بحضور نائب السلطان ، وناظر الحرمين ، والقضاة وغيرهم."(٧٥) ومن أشهر العلماء الذين عملوا بالتدريس في هذه الخانقاه، غانم بن على الأنصاري المقدسي، ومحمد بن غانم بن علي الأنصاري المقدسي، وغانم بن عيسى المقدسي وغيرهم الكثير.(٧٦)

وقد استقر في الخانقاه الصلاحية عدد من المتصوفة وطلاب العلم ، اشتغل بعضهم بالقراءات ونسخ الكتب ، والوعظ والقضاء والميقات ، ومن هؤلاء المتصوفة: تاج الدين عبدالوهاب المعروف بابن شيخ السوق.(٧٧) وقد أوقف عليها أوقافاً كثيرة للإنفاق على نشاطاتها ، ومن تلك الأوقاف التي أوقفت على الخانقاه الصلاحية: أراضي البقعة بظاهر القدس، بركة ماملا بظاهر القدس أيضاً ، الحمّام المعروف بالبطرك بالقدس، والقبو والحوانيت المجاورة له، وكذلك البركة المعروفة بالبطرك، والمربّع الملاصق لها.

٢-الزاوية الخُتَنيّة:

أنشأها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٧هـ/ ١٩٩١م وأوقفها على الشيخ جلال الدين أحمد بن محمد الشاش، تضم الزاوية مدرسة أيضاً، وقد طرأت تغييرات كثيرة عليها. موقعها بجوار المسجد الأقصى خلف المنبر، سميت بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ المعروف بالختني.(٧٨) ولعبت دوراً بارزاً في الحركة الفكرية في القدس في العصر الأيوبي وفي العصر المملوكي. وتولى مشيختها في العصرين عدد من كبار العلماء مثل: شهاب الدين بن أرسلان، وبرهان الدين الأنصاري، والشيخ شمس الدين القباقبي.

وقد هددت الحفريات الإسرائيلية هذه الزاوية بالسقوط لولا تدارك الأوقاف الإسلامية الأمر. ويشغلها اليوم مكتب تابع للجنة إعمار المسجد الأقصى المبارك، يعدها بعضهم مدرسة أحياناً وأحياناً أخرى يعدونها زاوية. كان لها وقف بالقرن العاشر عبارة عن دار بخط القطّانين.(٧٩)

٣ - زاوية بدر الدين:

تنسب إلى بدر الدين بن محمد الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، تقع في وادي النسور بظاهر القدس من الناحية الغربية ،وهو الشارع الكائن بين شارع باب السلسلة وشارع السرايا. توفي بدر الدين سنة ٦٥٠ هـ ودفن في زاويته، ثم خلفه فيها ابنه محمد، ثم عبد الحافظ بن محمد، ثم داود بن عبد الحافظ الذي كان من أصحاب الكرامات، ثم خلفه ابنه السيد أحمد الملقب بالكبريت الأحمر، لندرة وجود مثله في زمانه. وقد أوقفها بدر الدين محمد أحد أمراء الملك المعظم على فقهاء الشافعية.(٨٠)

٤-الزاوية الجراحية:

حملت هذا الاسم نسبة إلى واقفها الأمير حسام الدين حسين بن شرف الدين عيسى الجراحي، أحد قادة السلطان صلاح الدين، وقد توفي هذا الأمير ودفن في هذه الزاوية. يذكرها مجير الدين الحنبلي ويقول: "إنها بظاهر القدس من الجهة الشمالية. أوقف عليها الواقف أوقافاً ورتب لها الوظائف".(٨١) والزائر لهذه الزاوية اليوم يجد على جدارها الغربي من الخارج كتابة تأتي على ذكر الحسين بن عيسى الجراحي. تتألف هذه الزاوية من فسحة سماوية يحيط بها عدد من الغرف المختلفة في الحجم والمساحة والتسقيف أكبر غرفها غرف الضريح. وهي عبارة عن بناء مربع الشكل بسيط التكوين تعلوه قبة، بها محراب؛ أضيف إليها حديثاً بيت للصلاة عام ١٣١٣هـ- ١٨٩٥م. ويلحق بها مئذنة تقوم في الزاوية الشمالية الغربية.(٨٢)

دُور الكتب في بيت المقدس ودورها في الحركة الفكرية:

ذكرنا سابقا أن الحياة العلمية انتعشت في بيت المقدس بعد تحرير القدس، "وزادت عما كانت عليه قبل الاحتلال الصليبي، يشهد لذلك عشرات المدارس والزوايا والأربطة التي أنشئت في القدس، وكثرة المدارس يدل على كثرة الطلاب والمدرسين وكثرة حلقات العلم في المسجد الأقصى... ونشاط الحركة العلمية يتبعه كثرة الكتب والمكتبات التي تغذي العدد الكبير من طلبة العلم".[٨٣]

فهذه المراكز جميعها كانت تحتوي على خزانة كتب "يضاف إلى ذلك المكتبات الخاصة في منازل العلماء، ومنها مكتبة الشيخ برهان الدين بن جماعة خطيب الأقصى، ومدرس الصلاحية" [٨٤] وقد ذكر محمد كرد علي أن من أهم الخزائن في الشام خزانة المسجد الأقصى في القدس.[٨٥] وأضاف " أنه لم تكد تخلو مدرسة من مدارس في الشام من خزانة كتب، وكان لحلب ودمشق والقدس الحظ الأوفر من ذلك"[٨٦]. فعندما حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس أعاد حال الصخرة المشرفة كما كانت عليه قبل الحروب الصليبية ، وعين لها إماماً حسن القراءة ، ووقف عليها الأوقاف ، وحمل إليها مصاحف وختمات وربعات شريفة. [٨٧]

وكانت خزائن الكتب في الحرم القدسي الشريف موزعة بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وأنه كان في كل منهما خزائن خاصة للكتب ، ويدلنا على ذلك أنه كان لكل من المسجد الأقصى وقبة الصخرة خزنة للكتب أو أمناء خاصون.[٨٨] فلقد اهتم الأيوبيون اهتماماً كبيراً في هذا المجال، فقد " وقف صلاح الدين على الصخرة المشرفة مصاحف وختمات وربعات شريفة...ومن المحتمل أنه وقف كتباً أخرى على المعاهد العلمية التي أنشأها بعد تحرير بيت المقدس مثل المدرسة الصلاحية ، والزاوية الختنية وغيرها"[٨٩]

وسار الأيوبيون من بعده على نهجه، في العناية بخزائن الكتب، وتزويدها بنفائس الكتب والمخطوطات.[٩٠] إلا أن معظمها فُقد وضاع ، ومثال ذلك "ربعة أبي الحسن المريني التي كانت موجودة في خزانة الصخرة المشرفة، وبقيت فيها ستة قرون، ثم فقدت في هذا القرن في عهد المجلس الإسلامي"[٩١]

ويرجح الدكتور إسحاق موسى الحسيني " أن تجار المخطوطات من الغرباء سطوا على كثير من الكتب الثمينة التي وقفها السلاطين والأمراء والأعيان، وهربوها إلى خارج البلاد في غفلة من أهلها، فهناك صناديق مليئة بالمخطوطات في جامعة هايدنبرغ في ألمانيا عليها ختم المسجد الأقصى، عدا ما تسرب إلى أوروبا وأمريكا من تراثنا الثمين"[٩٢]

وقد أشار إلى ذلك محمد كرد علي في حديثه عما تعرضت له الكتب في بلاد الشام حين ذهب " إلى أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا العظمى وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها

والأساقفة والمبشرين من رجال الدين" وقد بلغ الجهل ببعضهم " أن يفضل درهماً على أنفس كتاب" واستباحوا لأنفسهم البيع والسرقة والتصرف في هذه الكتب"[٩٣] حتى أن بعض علمائهم قال: " إن العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع أحد أن يقرأه طول عمره"[٩٤] وقد ذهب بعض الباحثين " إلى أن المسجد الأقصى يمثل جامعة إسلامية كبرى".[٩٥]

فالمسجد الأقصى كان يضم العلماء والمفكرين من كل حدب وصوب، وقد كانت العلوم المختلفة التي تدّرس في بيت المقدس يتوفر منها نسخة أو أكثر من تلك النسخ في بيت المقدس ، هذا فضلاً عن توفر نسخ من المصنفات التي كان يصنفها العلماء ، ويرسلون منها نسخة إلى بيت المقدس، ونسخ من مصنفّات العلماء الذين يقيمون في بيت المقدس[٩٦]. كما ضمت دار كتب المسجد الأقصى كل ما يتعلق بتاريخ بيت المقدس ، ومنها على سبيل المثال كتاب "فضائل بيت المقدس والشام ، للشيخ أبي المعالي المشرِّف بن المرجي بن إبراهيم المقدسي، وكتاب " في تاريخ بيت المقدس وفضائله" للشيخ أبي القاسم مكي بن عبد السلام الأنصاري الرميلي الشافعي ، وكتاب " في فضائل بيت المقدس" للخطيب أبي بكر محمد بن أحمد الو اسطي المقدسي.... وغيرها الكثير من الكتب.[٩٧]

لكن هذا " التراث من الكتب المخطوطة قد تسرب إلى مكتبات بعيده عن القدس، ولم يبق منه إلا أقل القليل الذي لا يناسب مكانة القدس العلمية في التاريخ"[٩٨]. فيجب أن يكون التراث الإسلامي عموماً، وتراث القدس خصوصاً همٌّ كبير من هموم الأمة، ولا بدّ من الإلحاح عليه، ليظلَّ حاضراً عند المؤسسات التراثية العربية والإسلامية، والغيورين على أمتهم وتراثهم" [٩٩] وعلينا أن ندرس هذا التراث " لنعرف نحن أولاً ماهيته المعرفة العميقة المطلوبة، ولنعرف العالم ثانياً بماهية هذا التراث وخصوصيته.... ولنحدِّث العالم عن علم بصورة تدحض المفتريات" وما يذيعونه من تشويهات كثيرة لا تعدّ ولا تحصى...

الخاتمة:

عرضنا في هذا البحث صورة للحركة الفكرية في بيت المقدس في العصر الأيوبي، بعد زوال الاحتلال الصليبي.وقد خلصنا إلى مدى حرص الخلفاء والسلاطين في العصر الأيوبي على بناء المدارس في حواضر مصر والشام ، دعماً للحركة العلمية والفكرية ، ولتهيئة النفوس للجهاد ، ولمقاومة العقائد الإسماعيلية ، ولم يقتصر بناء المدارس على الحكام والسلاطين ، وإنما ساهم في بنائها الأغنياء والمعلمون والسيدات.

وكان دخول القائد صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بداية مميزة ومحطة بارزة من محطات تاريخ هذه المدينة. فقد بدأ منذ اليوم الأول لدخوله تضميد جراحات المدينة بإعادة إعمار ما خربه الصليبيون من دور علم، وما أحرقوه من خزائن كتب، وما هدموه من جوامع ومدارس ومنشآت حضارية، موجهاً الأنظار إلى أن الصراع مع الغرب على هذه المدينة المقدسة هو صراع ثقافي كما هو صراع عسكري.

وتابع خلفاء السلطان صلاح الدين نهجه في الاهتمام بالقدس، فقد شاركوه الاهتمام بجعل المدينة ذات وجه إسلامي، وشاركوه بتعميرها عن طريق إنشاء مبان دينية جديدة.

واستمر الاهتمام ببناء المدارس والزوايا والخوانق في العصر المملوكي أيضاً ، وقد اهتمت الدولة العثمانية بالزوايا والتكايا. ويحتم الواقع علينا الحفاظ على المدينة التاريخية حية بأوابدها المعمارية وملامحها العمرانية وروائعها الفنية والأهم من ذلك سكانها وهذا أمر هام.

ونرى أنه لا بدّ من تنشيط دراسة بيت المقدس وتاريخها،في الجامعات العربية ودفع الباحثين إلى عمل المزيد من الأبحاث التي تدور حول القدس وتراثها وآثارها، والعمل على إنشاء مراكز ومعاهد خاصة تُعنى بدراسة تاريخ القدس وتراثها.والعمل على ترجمة البحوث والمقالات ، التي تكتب بالعربية إلى لغات أخرى، وتوطيد العلاقة مع الأساتذة المختصين بتراث القدس في الأقطار الأجنبية.حتى نعيد للقدس مكانتها الفكرية والثقافية والأدبية.

الهوامش:

١. السيوطي ، محمد بن أحمد. اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى. تحقيق أحمد رمضان.القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة الأولى ١٩٨٢. جـ ١ ، ص ٢١١.

٢. المصدر نفسه: جـ ١ ص١٠١.

٣. عبد المهدي،عبد الجليل حسن. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي. عمان – مكتبة الأقصى. ١٩٨٤م. ص٤٩

٤. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة. م٣،ط١، بيروت. ١٩٩٠ ص ١٢.

٥. الحموي ، ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق حسنين محمد ربيع ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٧م . ج ٢ ص ٢٣٠ . انظر أيضاً: نعمان محمد جبران. المؤسسات التعليمية في القدس والحركة الثقافية. كتاب ندوة القدس بين الماضي والحاضر. جامعة البتراء ٢٠٠١ ص٦٥. محمد حسين محاسنة وآخرون. تاريخ مدينة القدس. عمان – دار حنين للنشر. ط ١ ٢٠٠٣ ص ١٨٧.

٦. أبو شامة. الروضتين في أخبار الدولتين. المؤسسة المصرية العامة – القاهرة ١٩٦٢ ج ٢ ص ١١٤

٧. الحنبلي – مجير الدين. الأنس الجليل. ، تحقيق عدنان يونس ، عبد المجيد أبو تبانة. الخليل – مكتبة دنديس طـ١،١٩٩٠م. ج ٢. ص. ٣٨٥ – ٣٩٨. وقد أحصى مجير الدين الحنبلي في كتابه أكثر من ستين مدرسة وزاوية، فضلاً عن مكاتب الأطفال. انظر أيضا: محمد أديب العامري، القدس العربية: الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية، عمان، ١٩٧١، ص. ١٣.

٨. العسلي ،كامل. المكتبات في فلسطين. الموسوعة الفلسطينية: القسم الثاني: بيروت ١٩٩٠ المجلد الثالث ، ص ٢٨٦

٩. الموسوعة الفلسطينية، ق ٢، مج ٦، ص. ٨٠٢.

١٠. حتّي،فيليب.تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين،ترجمة الدكتور كمال اليازجي. بيروت – دار الثقافة ، ١٩٥٩ ، ج٢، ٢٨٥–٢٨٦

١١. عبد المهدي ، عبد الجليل.الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي. ص٦١.

١٢. المصدر نفسه.ص٥١

١٣. ابن شداد، بهاء الدين.النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه، تحقيق جمال الدين

الشيال، ط١. القاهرة – الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٤.ص٨٢

١٤. الأصفهاني،العماد. الفتح القسي في الفتح القدسي. تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح، د.ت: ص٢٧
١٥. المصدر نفسه:ص٢٧
١٦. المصدر نفسه:ص٢٧
١٧. المصدر نفسه:ص٢٧
١٨. ابن أبي أصيبعه. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا. بيروت – دار مكتبة الحياة ١٩٦٥.ص ٦٨٥–٦٨٨
١٩. المصدر نفسه. ص ٦٨٨
٢٠. المصدر نفسه. ص ٦٨٩
٢١. الأصفهاني،العماد. لفتح القسّي في الفتح القدسي. ص ١٤١–١٤٢. انظر الأنس الجليل، ص:٤٨٤
٢٢. المصدر نفسه: ص١٥٠
٢٣. المصدر نفسه:ص١٥١
٢٤. المصدر السابق:ص٦٥٦
٢٥. الحنبلي مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. الجزء الأول ص ٤٧٧.
٢٦. المصدر نفسه. الجزء الأول، ص ٤٧٧.
٢٧. المصدر نفسه. الجزء الأول ، ص٤٨٣.
٢٨. الموسوعة الفلسطينية .القسم الثاني، الدراسات الخاصة ، مجلد ٣ ط١. ص١٢.
٢٩. الموسوعة الفلسطينية. ص١٦.
٣٠. الحنبلي ،مجيرالدين. الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل .ج ٢ ص ٨٨.
٣١. الموسوعة الفلسطينية . ص ١٦.
٣٢. المصدر نفسه. ص ١٧.
٣٣. عبد المهدي، عبد الجليل. المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. ص ١٤٣.
٣٤. الموسوعة الفلسطينية. ص ١٧
٣٥. الحموي. مفرج الكروب. الجزء الثاني. ص ٤١٤. الحنبلي. الأنس الجليل. الجزء الثاني. ص ١٠٣. عبد الجليل عبد المهدي. المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. الجزء الأول ص١٨٧
٣٦. أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل . الروضتين في أخبار الدولتين. بيروت – دار الجيل. الموسوعة الفلسطينية. ص ١٤. النعيمي، عبد القادر محمد. الدارس في تاريخ المدارس.تحقيق جعفر الحسيني. دمشق – مطبعة الترقي ١٩٤٨.

ج١ص ٢١٠

٣٧. النابلسي ،عبد الغني. الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٥هـ -١٩٩٤-القسم الأول، ص: ٤٢١-٤٢٢.
٣٨. المصدر نفسه. ص ٤٢٢.
٣٩. النابلسي ، عبد الغني. الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية. ص ٤٠٦.
٤٠. المصدر نفسه ،ص:٣٠٠
٤١. الموسوعة الفلسطينية ،ص:١٩.
٤٢. المصدر نفسه، ص:١٨- ١٩.
٤٣. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، مصدر سابق ،ص:١١٦.
٤٤. المصدر نفسه ، ص: ١٤٣.
٤٥. عارف العارف المفصل في تاريخ القدس، دار الفارس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط ٤ ، ٢٠٠٧، ص: ٢٨٧.
٤٦. المصدر نفسه ، ص: ٢٨٨.
٤٧. الموسوعة الفلسطينية، ص:١٧.
٤٨. مجير الدين الحنبلي.الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مجلد ٢ ،ص:٨٨.
٤٩. الأصفهاني، العماد. الفتح القسي في الفتح القدسي.ص ١٤٥
٥٠. محمد كرد علي. خطط الشام. الجزء السادس. ص ١٤٥.
٥١. البلوي ، خالد بن عيسى.تاج المفرق في تجلية علماء المشرق. تحقيق الحسن السائح. المغرب - مطبعة فضالة المحمدية. د. ت ج ١.ص٢٥٣. مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. الجزء الثاني. ص٧٧.العارف ، عارف. المفصل في تاريخ القدس.ص٢٣٩
٥٢. عبد المهدي عبد الجليل. المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. الجزء الأول ص ٣٤٠-٣٤٢.
٥٣. عارف العارف: تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، القدس: ص:٣١
٥٤. مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل. المجلد الثاني ص ٧٦ ، ص ٤٦. المفصل في تاريخ القدس. ص٣٦٨. المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. ص ١٨١.
٥٥. مقبولة حسن. القدس في العهد الأيوبي. الجامعة الأردنية ، رسالة ماجستير ، ١٩٩١. ص ١٠٧ - ١١٠.
٥٦. علي ، محمد كرد . خطط الشام. الجزء السادس. ص ١١٧.
٥٧. المصدر نفسه. جـ ٦. ص ٦٧.

٥٨. عبد الجليل عبد المهدي. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى. ص ٧٠
٥٩. علي ، محمد كرد . خطط الشام. ج ٦. ص ٦٤٦.
٦٠. المصدر نفسه . جـ٦. ص: ١٦٦
٦١. المصدر نفسه. جـ٦. ص: ١٦٦
٦٢. دائرة الأوقاف الإسلامية ، القدس. مخطوطة حول واقع المدارس الأيوبية في القرن العشرين. ٢٠٠٩. يوسف، حمد أحمد.بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية. ط١ ١٩٨٢. مطبعة دار الأيتام الإسلامية – القدس.
٦٣. عبد الجليل عبد المهدي. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى . ص ٥٩
٦٤. المصدر نفسه. ص ٧٥.
٦٥. المصدر السابق . ص: ٧٦.
٦٦. المصدر نفسه . ص: ٧٦.
٦٧. عبد الجليل عبد المهدي. الحركة الفكرية في بيت المقدس. ص ٧٨.
٦٨. الموسوعة الفلسطينية ،ص:١٨.
٦٩. المصدر نفسه، ص: ١٨.
٧٠. دائـــرة المـــعـــارف الإســـلامـــيـــة. المـجـلـد الـســادس عـشـر. الـقـاهـرة ، دار الـكـتـاب المـصـري. الـطـبـعـة الأولى ١٩٨٠. ص ٤٥٩. انظر أيضاً : منير سعد الدين. الزوايا والخوانق الصوفية والمكتبات في التراث.مجلة التراث العربي.دمشق. العدد ٤١ – السنة ١١ – تشرين الأول "أكتوبر" ١٩٩٠. ص ٢٢ – ٢٣
٧١. متز ، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده. الجزء ٢ . لجنة التأليف والنشر مطابع دار الشعب ، ١٩٥٧.
٧٢. تاريخ قبة الصخرة المشرفة والأقصى المبارك، ص ٣١.
٧٣. عارف العارف. المفصل في تاريخ القدس ، ص: ٢٨٩. كرد ، محمد. خطط الشام. ج ٦ ،ص ١٥٠.
٧٤. مجير الدين الحنبلي.الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، م ٢، ص٩٩. الحموي. مفرج الكروب. ج ٢ ، ص ٤٠٧.
٧٥. عبد الجليل عبد المهدي. المدارس في بيت المقدس. ص ٤٠٤–٤٠٥.
٧٦. المصدر نفسه. ص:٤٠٥ – ٤٢٥.
٧٧. مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. الجزء الثاني. ص ٣٤٠ ، ٣٤١
٧٨. العسقلاني ، ابن حجر. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد سيد جاد الحق. مصر– مطبعة المدني. الطبعة الثانية ١٩٦٦ م الجزء الأول ص٣٨٧.

٧٩. عارف العارف. المفصل في تاريخ القدس ص ١٧٨ ، ١٧٩. الأنس الجليل. ج٢ ص ٤٧
٨٠. مجير الدين الحنبلي . الأنس الجليل ج ٢ ، ص٤٧.
٨١. المصدر السابق. م ص .
٨٢. رائف نجم. كنوز القدس. ص ١١٢
٨٣. شرّاب: محمد حسن.موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى. عمان – الأهلية للنشر والتوزيع.الطبعة الأولى ٢٠٠٣. ص٩٩٦.
٨٤. عبد الجليل عبد المهدي. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين المملوكي. ص٨٢.
٨٥. محمد كرد علي. خطط الشام.الجزء السادس. ص:١٩٥.
٨٦. المصدر نفسه.ص:١٨٦.
٨٧. مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل . ج ١ ص ٣٣٩.
٨٨. كامل العسلي. المكتبات في فلسطين. الموسوعة الفلسطينية. بيروت ، ١٩٩٠ . القسم الثاني. المجلد الثالث ، ص ٢٨٨.
٨٩. عبد الجليل عبد المهدي. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي ،ص٢٦٣.
٩٠. المصدر السابق. ص٢٦٣.
٩١. المصدر السابق ، ص: ٢٦٥.
٩٢. المصدر السابق ، ص: ٢٦٦ ، نقلاً عن وثيقة مقدسية تاريخية للشيخ محمد الخليلي، ص: ٧–١٤.
٩٣. خطط الشام ، ص: ١٩٣.
٩٤. المصدر نفسه ، ص: ١٩٣.
٩٥. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي،ص:٩٤.نقلا عن تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ،ص:٣٧.
٩٦. المصدر السابق، ص:٢٧١.
٩٧. المصدر نفسه، ص:٢٧٤.
٩٨. موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى جـ٢، ص:٩٩٧.
٩٩. الحفيان، فيصل:تراث القدس ذاكرة المكان والإنسان ، معهد المخطوطات العربية وجمعية الدعوة الإسلامية، طـ ١، ٢٠٠٨ م ص١٤.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. شرح وتحقيق د.نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.
٢. الأصفهاني ، العماد.الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صباح، د،ت.
٣. البلوي ، خالد بن عيسى.تاج المفرق في تجلية علماء المشرق. تحقيق الحسن السائح. المغرب – مطبعة فضالة المحمدية. د. ت
٤. جبران ، نعمان محمد . المؤسسات التعليمية في القدس والحركة الثقافية. كتاب ندوة القدس بين الماضي والحاضر. جامعة البتراء ٢٠٠١
٥. حتي، فيليب. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، دار الثقافة- بيروت –ج٢ ، ١٩٥٩م.
٦. حسن ، مقبولة. القدس في العهد الأيوبي. رسالة ماجستير. عمان – الجامعة الأردنية. ١٩٩١.
٧. الحفيان، فيصل: تراث القدس ذاكرة المكان والإنسان ، معهد المخطوطات العربية وجمعية الدعوة الإسلامية، ط ١، ٢٠٠٨ م
٨. الحموي ، ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق حسنين محمد ربيع ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٧م
٩. الحنبلي ، مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، إعداد وتحقيق ومراجعة عدنان يونس عبد المجيد أبو تبانه، إشراف الدكتور محمود عطا الله، مكتبة دنديس _ الخليل_ ط ١، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
١٠. دائرة الأوقاف الإسلامية ، القدس. مخطوطة حول واقع المدارس الأيوبية في القرن العشرين. ٢٠٠٩.
١١. دائرة المعارف الاسلامية. القاهرة – دار الكتاب المصري. الطبعة الأولى ١٩٨٠.
١٢. السخاوي ، شمس الدين بن محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان– ، الجزء الحادي عشر.
١٣. سعد الدين،منير .الزوايا والخوانق الصوفية والمكتبات في التراث.مجلة التراث العربي اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ٤١ – السنة ١١ – تشرين الأول "أكتوبر" ١٩٩٠.
١٤. السيوطي، محمد بن أحمد. اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى. تحقيق أحمد رمضان. القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة الأولى ١٩٨٢. جـ ١ ، ص ٢١١.

١٥. أبو شامة. الروضتين في أخبار الدولتين. القاهرة – المؤسسة المصرية العامة. ١٩٦٢. ص ١١٤.
١٦. ابن شداد. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق جمال الدين الشيّال،١٩٦٤.
١٧. شرّاب ،محمد حسن. موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن– الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠٣.
١٨. العارف ، عارف. تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية القدس.
١٩. العارف ، عارف. المفصّل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت– طـ ٢٠٠٧،٤م
٢٠. العامري ، محمد أديب. القدس العربية: الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية، عمان، ١٩٧١
٢١. عبد المهدي، عبد الجليل، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي. عمان – مكتبة الأقصى، ١٩٨٠.
٢٢. عبد المهدي ، عبد الجليل. المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. عمان – مكتبة الأقصى.
٢٣. العسقلاني ، ابن حجر. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد سيد جاد الحق. مصر– مطبعة المدني. الطبعة الثانية ١٩٦٦ م
٢٤. العسلي، كامل. المكتبات في فلسطين. الموسوعة الفلسطينية: القسم الثاني: بيروت ١٩٩٠.
٢٥. علي، محمد كرد: خطط الشام، بيروت، الجزء الخامس، ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م.
٢٦. متز ، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة. دار الشعب ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٥٧.
٢٧. محاسنة ، محمد حسين وآخرون. تاريخ مدينة القدس. عمان –دار حنين للنشر. ط ١ ٢٠٠٣
٢٨. الموسوعة الفلسطينية.بيروت، الطبعة الأولى.١٩٩٠.
٢٩. النابلسي ، الشيخ عبد الغني: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية. إعداد الدكتور حمد أحمد عبد الله يوسف.دارإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٦٤.
٣٠. نجم ، رائف نجم.وآخرون. كنوز القدس. منشورات منظمة المدن العربية ط ١ ١٩٨٣.
٣١. النعيمي، عبد القادر محمد. الدارس في تاريخ المدارس.تحقيق جعفر الحسيني. دمشق – مطبعة الترقي ١٩٤٨.
٣٢. يوسف، حمد أحمد.بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية. ط١ ١٩٨٢. مطبعة دار الأيتام الإسلامية – القدس.